الغزو الثقافي الغربي (أسبابه، ومخاطره ، ونتائجه)

د. المرزوقي علي الهادي ــ الجامعة المفتوحة ـ ليبيا

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم -المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الثقافة هي مجموعة المعارف والعلوم التي تؤثر في الحضارة البشرية ، ولما جاء الإسلام وسّع مدلول هذه الكلمة وهو يعني إدراك جميع المفاهيم الإسلامية لجميع جوانب الحياة المختلفة، ويعد مصطلح الثقافة من أكْثر المصطلحات شيوعاً في مجال الدّراسات الإنسانية والاجتماعية ، إضافة إلى استخدامه بكثرة من قِبَلِ غالبية الكُتَّاب والصَّحفيين ورجال الإعْلام والسياسة ، وعامّة النّاس([1])، فشُيوع استخدامه دليل على أهميته ، ويعيش عالمنا الإسْلامي غُربة ثقافية ويواجه تحديات كبيرة نتيجة لموجة من الهجمات المدبرة والمخططة والمدروسة والتي ترتب عليها غزو فكري واقتصادي واجتماعي، وأخطرها الغزو الفكري والثقافي.

والثقافة في اللغة مصدر للفعل ثــقـُف ، وهذا الفعل له معان متعددة في المعاجم العربية منها الحذق والفطنة ، والفهم السريع ، وإدراك الشيء والظفر به . ويراد بالثقافة إذا أطلقت أرادوا بها ما يتعلق بالجانب الفكري والأدبي والمعرفي ، والعاطفي، وقيل : إن المثقف من يعرف شيئاً عن كلّ شيء ، والمتخصص من يعرف كل شيء عن شيء .

ومعنى كلمة الغزو في اللغة تعني السير إلى قتال الأعداء في ديارهم وانتهابهم وقهرهم والتغلب عليهم (2) ، ويقصد بها في الاصطلاح : العمل على خلْق عقيدة جديدة عند المسلمين تعتمد على تصورات الفكر الغربي في الحياة والإنسان والكون(3)، وممَّا ساعد على الغزو الثقافي أن المسلمين في عصرنا الحاضر في أردأ أحوالهم الثقافية والاجتماعية ، وقد بلغ التَّخلف كل مناحي الحياة ، وفي أحط أنواع التردي الفكري والخلقي، فقد شاعت فينا النزعة السلبية والأنانية وماتت الروح الجماعية في الأمة .

وكلمة الغزو الثقافي تتداول في العصر الحاضر ولم تعرف في العصور السابقة، فلقد بُلي هذا العصر بأنواع عدّة من الغزو من العسكري إلى الاقتصادي إلى الثقافي، لكن هذا الأسلوب واللون من الغزو لا يأخذ الطابع المباشر ، بل يأخذ طابع التحريف وتخريب العقول ، وهدفه أن تظل الشعوب ضعيفة وخاضعة للقوى المعادية، والمراد أن تتبنى أمة من الأمم معتقدات وأفكار ورؤى أمة أخرى بعيدة عنها ثقافيا ودينيا ويتم تشويه مناهج تعليمها، ويُصطنع حاجز بينها وبين سلفها وتاريخها ولغتها ، فالثقافة هي العمود الفقري لهذه الأمة ؛ وهي الهوية التي نستمد منها شرعيتنا ، وهي قضية متشعبة ، ولقد كان المحور الثقافي موضع اهتمام من قبل مفكرينا ، ولكن المعالجة في أغلبها فردية حماسية خطابية .

أهمية الموضوع :

في احتدام الصراع مع الغرب لم يترك لشعوب العالم الثالث مسار الثقافة الإنسانية تأخذ مجراها الطبيعي ، فثقافة اليوم عبارة عن مجموعة من الأفكار المتناقضة والتعاليم اللاأخلاقية ، فهي ثقافة إلغائية ، فالتَّطبيع لا يعني فقط أن تقبل بثقافة الآخر وقوته ، وإنَّما يعني أن يصبح الإنسان العربي أو المسلم مطبّعاً بكل سمات الغرب الفكرية والسلوكية والاقتصادية والسياسية ، وهو يعني الانسلاخ الكامل من جذورنا ومن تراثنا ، فما يُطـــرح في مؤتمراتنا ويُشرف عليها الغرب بمنظماته هو تهديد وتقويض لكيان الأسرة النّواة الأولى في المجتمع ، فالثقافة الغربية المعاصرة تقوم على إنكار الخالق ، ودور الدّين في تنظيم الحياة العاطفية والعلاقات الاجتماعية (4)، فلكل مرحلة تاريخية استخدم الغرب أسلوبا معينا ووسيلة معينة ، ثم غيَّـــر أسلوبه ووسيلة غزوه حسبما يرى أنها أكثر نفعاً لتحقيق مصالحه ، فمثلاً استخدم التَّنصير والاستشراق، ثمَّ جاءت مراحل تاريخية تالية لتحتل فيها أساليب حديثة ومتّطورة ومتكيّفة مع أوضاع العالم الإسلاميّ ، وتستند على خبرات الأساليب السابقة ؛ بل يرى بعضهم أن كلَّ وسائل الغزو الثقافي الغربي وأساليبه موجودة ، وإنْ تغيّـــرت أسماؤها أو اختفت ، فالمدقق فيها يجدها واضحة المعالم(5)

فالغرب عندما غـزانا بمختلف أنواع الغزو ، لا عجب أن ينتصر إذا كان في حالة قوَّة ونحن في حالة ضعف وفتور، فالدّيانات التي في العالم كالبوذية والمجوسية لا يخشونها ؛ لأنها ديانات قومية لا تخرج خارج إطارها الجغرافيّ والقوميّ ، وليس

لها طموح في امتدادها ، أمَّا الإسلام فهو ـ كما يسمونه ـ دين زاحف متَّحرك ، وهو يمتد بنفسه بلا أية قوّة مساعدة ، وله قُوَّة ذاتية تنبع من داخله على الرغم من أنه يمر بمرحلة ضعف وفتور ، وهذا هو وجه الخطر الحقيقي من وجهة نظرهم ؛ ولهذا وجب عليهم الاحتراس منه ومقاومته(6).

ومن هنا أدرك الغرب أن من يمتلك القيم يمتلك النصر ، ويتمكَّن في الصمود ، وهذا هو سرُّ الهجمة الشرسة على المسلمين ، وإلا فالمسلمون ليسوا أغنياء إذا ما قورنوا بالغرب ، فميزانية شركة جنرال موتورز الأمريكية تعادل ميزانية العديد من الدول الإسلامية ، والمسلمون في مجال التكلونولوجيا يقفون في آخر الطابور ، ومع هذا يصنفون من قبل الغرب على أنهم العدو الأول؛ لأنَّ القيم السامية هي التي تحفظ للأمة وزنها (7)، وخير شاهد على هذا ما قاله عازار وايزمان :

" لا عطف ولا رثاء حتى ننتهي مما يسمى الحضارة العربية التي تُبنى على أنقاضها حضارتنا(8)، هذه المقولة تكشف عن الأهداف المبيتة لطمس معالم الثقافة العربية الإسلامية ، وتعمل الصهيونية(9) والصليبية ليلاً ونهاراً على تمزيق وحدة العروبة والإسلام ، ودق أسافين التجزئة والتفرقة من خلال الشعارات المعادية والمذاهب الهدامة(10)، والتي تتفق في مجملها لغاية واحدة ؛ وهي تحطيم المعتقدات الإسلامية ، وإذابة القيم الرفيعة العالية للمجتمع المسلم، واستبدالها بفلسفات مادية وجودية تقوم على الإلحاد والشك والإباحية وإشاعة الرذائل.

مشكلة البحث :

السؤال الذي يفرض نفسه ما هي الأسباب التي هيأت المنطقة العربية والإسلامية للغزو الثقافي في العصر الحديث ، فقد يكون من ضمن أسباب الغزو الثقافي بهذه الصورة أسباب كثيرة منها على سبيل المثال ، مدارس التنصير ، والهجرات الدراسية ، والأصدقاء ، والبعثات العسكرية، ولعل السبب المباشر للغزو الفكري والثقافي ، وتبعية الأمة الفكرية للغرب بهذه الصورة هو بعد الأمة عن دينها ، وكتاب ربها ، وسنة نبيها ، هذا هو سبب ما نحن فيه من بلبلة فكرية وتأخر حضاري(11)

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى التنبيه إلى النقاط الآتية :

1- التقليد والتبعية إذا أصيبت بهما أمة تأخرت عن ركب الحضارة .
2- لا سبيل لنهضة ثقافية إلا عن طريق اللغة.
3- التغريب محاكاة الغرب في كل شيء
4- الغزو الثقافي يسلب الأمة خصوصيتها وتفردها
5- الأمة الإسلامية على عاتقها عبء ثقيل لإنقاذ العالم

ولكي يحقق البحث الأهداف التي كتب من أجلها فقد تم تقسيمه إلى المطالب الآتية : المطلب الأول : التقليد والتبعية ، والمطلب الثاني : اللغة العربية عامل مهم في قوة الأمة وسر بقائها، والمطلب الثالث : التَّغريب وأثره في النُّخب المثقفة ، والمطلب الرابع : آثار الغزو الثقافي ونتائجه ، والمطلب الخامس أبرز السبل التي يمكن أن تنتهجها الثقافة الإسلامية لإنقاذ العالم ، ثمّ الخاتمة والتوصيات .

المطلب الأول ــ التقليد والتبعية :

قد طَرَح المسلمونَ سؤالا لماذا تقدَّم الغرب وتأخرنا على الرغم من كفره بالله وإيماننا به، وما هو السبيل الذي يؤدي إلى نهضتنا ؟ و للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نلقي نظرة فاحصة على طريقة حياة المسلم الاجتماعية، فالحواجز بين المسلمين وغيرهم أزيلت، وصار المسلم لا يرى غضاضة في مشاركة الكافر أساليب عيشه ، بل إن بعضهم يرى أن ذلك مدعاة للفخر والمباهاة إذا استوطن في إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما من الدول الغربية ، فأدَّى إلى رفع الحواجز بين المسلمين وغيرهم ، وتقليدهم في طريقة عيشهم ، وأكلهم ، وشربهم ، فالمسلمون لم يفهموا دينهم فهما صحيحا ، وعلَّة تخلفنا في العصر الحاضر هو جهلنا بالعلوم الحديثة بمختلف أنواعها ،الجهل بالنَّظام السياسي، والاقتصادي ، والاجتماعي الذي اهتدى إليه الغرب فأدار حياته باقتدار ، وما زلنا نرسف في الطريقة والكيفية التي نحكم أنفسنا وندير بها طريقة حياتنا ، يضاف إلى النقطة السابقة جهلنا البيّن بعلم الاقتصاد الذي يعالج مشاكل الإنتاج والتسويق ، والجهل - أيضا- بالنظام الاجتماعي الوصفي الذي يؤمن لنا الاستقرار والتماسك .

إن نظرة سريعة من حولنا تعطينا كيف صار الناس أسرى لفلسفة الاستهلاك، وهذا اللون من الاستعباد فرض على الناس التزامات جعلتهم أسرى مكبلين يسيرون في دروب مفروضة عليهم سلفا ومخطط لها مسبقا ، لكنهم اختاروها طوعا ظنا منهم أن ثقافة الاستهلاك والتقليد دالة على التحضر والرقي ، وكثير من علية القوم قلدوا

الغرب في طريقة التفكير والسلوك والزي واللباس ، (والمغلوب مولع بتقليد الغالب)، كما يقول ابن خلدون ؛ لأنه يعتقد أن فيه الكمال ، فينحو منحاه ، ويعتنق مبادئه ، ويتعلَّم لغته (12)، ويفرح لفرحه ويسر لسروره ألا ترى معي على سبيل المثال كيف يصير حال أبنائنا إذا فاز فريق لكرة قدم لبلد أوربي، والمشاهد أنه ترفع رايتهم وربما اتسحت بإشارة الصليب وتوزيع الحلوى والمرطبات ابتهاجا بالنصر الذي حققه الفريق الفلاني ، فهي إذن حالة نفسية وفكرية ، أساسها الانبهار الشديد بثقافة الغازي وفكره ، والمعروف أن الإنسان لا يقلد إلا من يعتقد أنه أفضل منه ، أي : أن التقليد هو نوع من التسليم بتفوق المقلَد على المقلِد ، والتقليد ينتج التبعية ؛ لأنَّ المقلِد يظن أنه بمجرد تقليد المتفوق عليه في سلوكه وفكره سوف يتمكن من اللحاق به ، والمقلِد دائما أضعف من المبدع، فالتقليد لن يخلق أي ملكة إبداعية فيها إبداع .

والدولة الغازية لا تنجح في غزوها الثقافي ، ولا تحقق ما يصبو إليه إلا إذا كان المجتمع المستعمَر عنده القابلية للاستعمار، بسبب تفكك بنيته الاجتماعية والثقافية وركوده الفكري وغياب المدرسة العقلية الواعية ، ففي غياب الإبداع والتفكير السليم تزداد قابلية التلقي من الآخر، وتحدث التبعية الثقافية التي هي عقدة النقص أمام الأجنبي مع ظروف التخلف الداخلي يساعدها أمية متفشية يفقد فيها المواطن الحس النقدي والتحليل المنطقي للأحداث وهو ما يمكن أن نسميه أمية المتعلمين فعدد كبير عندنا من خريجي الجامعات من حملة الليسانس والبكارلويس ؛ لا يستعملون حواسهم ومواهبهم أثناء قراءاتهم للأحداث مما جعلهم ينبهرون بالنجومية والبطولية التي يروج لها الإعلام الغربي الكاسح الذي غزا العقول وغرر بها فالتبعية عن طريق التقليد تبعية ثقافية واقتصادية ، والتبعية الاقتصادية تجر معها التبعية السياسية ، فإذا تمت التبعية الثقافية والاقتصادية والسياسية لم تُبق مجالا للعقيدة الإسلامية ؛ لأن الإسلام لا ينفصل عن الحياة العامة التي هي الأسرة والعمل والعبادة ، فهذه المجالات كلها مجالات تطبيق الإسلام ، فإذا فقدت مجالات تطبيقه لم يبق لشعائر الإسلام وجود لا قدر الله(13) .

ومن التقليد الأعمى الذي وقع فيه شبابنا عن جهل وقلة فهم منهم محاكاتهم للغرب في كل شيء حتى في الموسيقى ، فلقد قلدوهم في موسيقى الـــرَّاب ، وهي تعبير عن الرفض والتمرد ، فأغانيها كلها شغب وشتم، لكل شيء ، وكلماتها يستحي المرء أن يلفظها حتى ولو سراً يحرك به شفتيه ، ولو كان خاليا في مكان لا يسمعه فيه أحد؛

لأنها بصريح العبارة تحمل الأغاني عبارات خادشة للحياء حتى إن إحدى هذه الأغاني تدعو الشباب إلى الاغتصاب وممارسة العنف الجنسي صراحة ، ولها أسماء غريبة ، فمن أسماء بعض فرقها الموسيقية - في الجزائر على سبيل المثال - فرقة سمت نفسها الشيطان الأحمر، فعلا هذه الفرقة وغيرها ممن هو على شاكلتها لا تختلف عن بقية الشياطين (14)

فمن يرتدي بزة معينة دلت على أنه ينتمي إلى شريحة معينة ، فارتداء بزة الشرطي دل على أنه شرطي ، وارتداء بزة الكشافة دل على أنه فرد من أفراد الكشافة ، وهكذا ، وكذلك الطابع المعماري بشكله الهندسي ، فالمسجد يختلف تصميمه عن البيت ، والبيت عن السوق ، والسوق عن المعسكر(15) ويدخل في هذا من قلد ثقافة قوم غير قومه ، فلبس لباسهم وقلدهم في زيهم وعاداتهم ومسلكهم وحياتهم ، ومنه قول النبي-ρ- :" **من تشبه بقوم فهو منهم** " [أورده السيوطي في الجامع الصغير أحاديث البشير النذير ، 2/ 590 ، رقم الحديث : 8593]. دار الفكر . بيروت

وثمة أسلوب يتبعه المنصرون ومن تحالف معهم من أجنحة المكر والخبث والكيد، وصار يسري في مجتمعاتنا دون أن نشعر والذي نعيشه مرات دون أن ندري أو يسترعي انتباهنا ، وهو ما طرأ على طريقة بناء المساجد في بلادنا فقد أصبحت مساجدنا الجديدة حديثة البناء - في أغليها تشبه الكنائس إلى حد التطابق في بعض الحالات ، ومن ينظر إليها يهوله اختفاء الفن المعماري الإسلامي لها ، والذي كان يتميز ببعض الأشياء مثل القباب وشكل المئذنة بشرفاتها المرتفعة وقمتها المحدبة التي يعلوها الهلال ، لقد اختفت أو كادت تختفي كل المعالم الأصلية ، ومهما كان من الأقوال من أن القباب لم تكن على عهد رسول الله إلا أنه لم ينه عنها ، ومسجد رسول لله له قبة خضراء ، والمسجد الحرام فيه قباب(16) وقد دخل إلينا الطراز المعماري الغربي تحت عنوان ، الانفتاح على الغرب ، وأصبحت القيم العقارية تخضع لنوع خاص من المباني يتبع المظهر الغربي الذي يحرص بعض الناس على إبرازه ليظهروا للناس تقدمهم حضارياً ، وارتفاع قدرهم اجتماعيا وثقافيا(17) .

ومن أعظم المحن التي أسهمت في تأخر المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة العلم الناقص الذي هو أخطر من الجهل البسيط ؛ لأنَّ الجاهل إذا قيض الله له مرشداً عالما بصره بجهله ، وبيّن له عيوبه، وأرشده إلى الطريق الصحيح ، وأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري ، وكما قيل : ابتلاؤكم بمجنون

خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، ونقول ابتلاؤنا بجاهل خير من ابتلائنا بشبه عالم (18)، يقول مالك بن نبي :" ..التَّخلف الذي نعاني منه عقوبة مستحقة على أهل الإسلام، لتخليهم عنه لا لتمسكهم به ، ولا يتحمل الإسلام وزره ، بل هو عقوبة إلهية ، ومن خلال النظرة الموضوعية المنصفة يتبيّن لنا أن الإسلام ليس مسؤولا عن كل هذه التَّصرفات الرعناء التي صدرت وتصدر عن بعض أفراد انتسبوا إليه والتصقوا به إلتصاقا، وهو بريء من أفعالهم ، فلم يتعمقوا فيه ، ولم يعرفوا أسراره ، ولم يغوصوا في بحاره ، ويستخرجوا لؤلؤه ودرره وكنوزه وجواهره ، يصدقه قول الرسول- ρ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»([19])،

المطلب الثاني ـ اللغة العربية عامل مهم في قوة الأمة وسرّ بقائها :

إن مما يلفت الأنظار في شوارعنا العربية انتشار الأسماء الأجنبية في المحال التجارية والمهن ، والحرف ، ومحلات التصوير، والفنادق ، والمقاهي ، والميادين ، والشوارع ، حتى أصبح من النّادر أن تعثر على لافتة مكتوبة بالعربية في كثير من البلاد العربية ، وهو مظهر من مظاهر الغزو الغربي الثقافي الأجنبي يعلن عن نفسه في لافتات مكتوبة بالخط العريض ، أضف إلى ذلك استخدام كثير من الألفاظ الأجنبية وتداولها وشيوعها بين الناس بدلا من الألفاظ العربية فنجد مثلا : البلكونة ، بدلا من الشرفة ، واللمبة بدلا من المصباح ، ومول بدلا من المجمع التجاري ، وهكذا (20)، فلغتنا ثرية بمفرداتها وليست ضيقة ، وهي ليست بحاجة للألفاظ الأجنبية التي تغزوها من ألفاظ الترحيب هاي ، وباي، وهالو ، وألفاظ أخرى نستخدمها في حياتنا وعناوين المحلات التجارية ، مثل : سوبر ماركت ، وسنتر ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه عامل من عوامل ضعف أبناء العربية ، قال الرافعي :" ما ذلت لغة شعب وانحطت ، إلا ذل ، وكان أمره في ذهاب وإدبار" .

إن أمر اللغة العربية عظيم ليس بهين، فلا تترك لمستثمر أو صانع أو تاجر عملة أو حلاق ، فهذا الخطر بعينه على قيمنا ولغتنا وشخصيتنا. يا تُــرَى ما الذي يمنع حكوماتنا على كثرتها أن تمنح قرارات مجامع اللغة العربية واللغوية توصياتها صفة الإلزام القانوني وعلى الجهات المعنية تنفيذها ؟ بحيث يعاقب قانونا كل من

يخالفها ، فاللغة قالب الأفكار فإذا أصيبت اللغة أصيبت الأفكار ، كما قال الأستاذ يحيى حقي ، وهو رأي عبد اللطيف السوداني أيضا، ثم أضاف قائلا:

إن العزة القومية تدعو إلى استعمال اللغة القومية فهذا هو المشاهد عند الأمم التي نظنها أنها صغيرة وضعيفة مثل: البلغار، والمجر ، وحتى كيان إسرائيل المزعوم الذي أحيا اللغة العبرية من المقابر، وجعلها لغة رسمية له والعلاج الحاسم أن تضع لجان متخصصة الكلمات المختارة بدلا من الأجنبية ، ثم تقوم لجان أخرى بفرض رقابة حكومية إلزامية وشعبية على ترويجها ، وإشعار الجماهير الغفيرة أن ترك الفصحى في مهب الريح كبيرة من الكبائر، والأمة التي تفقد لغتها كالفتاة التي تفقد عفتها وعرضها ، وأن المسلمين مكلفون بالدفاع عن العربية ضد كل هجوم ؛ لأن الهجوم في مراحله الأخيرة سيتجه إلى وحي السماء(21) فخذوا حذركم فاللغة العربية نظام معرفي ومخزون أساسي للفكر الإسلامي عبر تاريخه المديد وأداة مقدسة إلى اليوم على الرغم من وجود لغات أخرى إلى جانبها في الفضاء الإسلامي فاللغات كلها مقدسة عند أهلها يعتزون بها ويعلمونها لأبنائهم فليس هنالك شعب يرى النقص في لغته ، يقول طه جابر العلواني :" زرت اليابان ومن جملة ما لاحظه تمسك اليابانيين بلغتهم أكثر من تمسك العرب بلغتهم ، ولفت نظره أثناء الندوة التي حضرها ، والتي لغتها الرسمية الانجليزية كانوا يتدخلون باليابانية ويتركون الترجمة الفورية للمترجم يترجم كلامهم إلى الإنجليزية أو العربية في حين أن جميعهم يتكلمون الإنجليزية ، ليس هذا فحسب ؛ بل الأمر الذي لفت انتباهه أنهم عندما كتبوا أسماءهم باليابانية وحدهم ، وأسماء الوفود الأخرى بالإنجليزية ، فعلوا ذلك دون أي شعور بالنقص والدونية ، ثم يستطرد قائلا ومنذ سنوات زرت أسبانيا وطلب مكالمة هاتفية من المقسم البريدي وتحدث الفرنسية فأجابني على الفور أنت الآن في أسبانيا وعليك أن تتحدث الاسبانية فقط ، ثم أقفلت الخط .

اللغة العربية تمتلك من الخصائص ما يعطيها القدرة على التعبير عن كل الأشياء، وقد كان أهلها حريصين عليها ينطقون بها باعتزاز ، يربون أولادهم على حبها وإجادتها ، وحين ظهر اللحن على الألسنة هب علماء الأمة ، ووضعوا الأسس والقواعد كي يحافظوا عليها ، ويدرؤوا الخطر الذي يهدد كيان هذه الأمة .

وإذا رجعنا إلى التاريخ عرفنا أن من أسباب ضعف الدولة العثمانية أنها جعلت اللغة العربية اللغة الثانية ، وليست الرسمية حتى إنه في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الهجري لم يظهر في العالم الإسلامي عالم مفكر ، ولا أديب نابه ، ولا شاعر عظيم ، ولا مؤلف ذكي ، إلا ما يعد على أصابع اليد فقد كان الجهل يلف كل شيء ، وكانت عجمة الدولة سببا في تخلف المسلمين ، فانهارت الحياة العقلية وأصبحت لا تجد شاعرا ، ولا كاتبا تستطيع أن تقرأ له شيئا يلذ عقلك أو يمتع وجدانك(22) ، فانحط المستوى الثقافي لانحطاط اللغة (23)

المطلب الثالث ــ التَّغريب وأثره في النخب المثقفة :

الغزو الفكري الثقافي حملة خطيرة ؛ لأنه تغيير يجري داخل العقول والقلوب ، ثم ينتقل إلى الأخلاق والعادات والتقاليد، ويخطط له علماء النفس والاجتماع وجهاز الاستخبارات، وإدارات الإحصاءات المختلفة، التي تقوم بها الدول الغازية ، وهو من أخطر الحملات التي تواجه العالم الإسلامي ، فبرز الغرب عملاقاً في عالم من الأقزام ، وجعل من نفسه مركزاً ومرجعية فكرية وعلمية ومنهجية كونية وعالمية وحيدة تمتلك المنظومات الفكرية والإعلامية والاتصالية ما يقنع شعوب العالم الثالث بشرعية ما يقوم به ، بل وصل به الأمر إلى مرحلة ما يسميها فهمي هويدي الاسترقاق ، فقال :" وهذا العصر يشهد نوعا من الأرقاء يمكن أن نسميهم بالأرقاء الجدد " (24)، وهم من نخبة من علية القوم هم مفكرون ومثقفون وأساتذة جامعات وزعماء وفنانون ، عندما تسمع ما يقولون ، لا تسمع ما يشير إلى أنهم ينتمون إلى بلدهم من غربتهم وهم في أوطانهم ، ولعل من صورة الغزو الثقافي في الأدب ما نشر من رواية وليمة أعشاب البحر ، فهي لا تحمل أي توقير لله ، ولرسوله، ولكتابه ، وللشريعة الإسلامية ، وفيها عبارات تحط من شأن الذات الإلهية ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ، وتتحدث عن العلاقة الجنسية بصورة مكشوفة مما يخدش الحياء العام ، ويشيع الفاحشة في الذين آمنوا وللأسف بعد ما ورد فيها من إسفاف وقلة حياء وجدنا من تبوأ أعلى المناصب ، وأمَّنه الناس على دينهم يقولون: إن الوزارة لا تحجر على إبداع الأدباء ، ([25]) ، وأنَّ الرّواية ليس فيها ما يناقض الدِّين ، وأنها تنشر ثقافة مستنيرة لتواجه الظلاميين ، وأن للأديب الحق في الإبداع ، فهل نترك له الحبل على غاربه كما يقول المثل والحق المطلق دون قيد يفرضه عليه الدين والعرف والمجتمع والقيم والتقاليد والعادات ، والأديب الذي لا يتصل بالمجتمع

وبثقافته ، ولا يلتقي معه في عقيدة وديانة، ولا يرتبط معه بعاطفة أو وجدان وهذا وإن اعتبره بعضهم فضيلة وكمالا لتجرده ، فإن من علماء الأدب من يعتبره نقصا وعيبا ؛ فإن الكتابة التي لا يستطيع القارئ أن يحدد زمانها وبيئتها ولا يهتدي إلى عقيدة مؤلفها وفكره والقيم والمثل التي يحبها وينتصر لها ، ولا يشعر القارئ أثناء قراءته لأدبه بألم وحزن وحلاوة وإعجاب ورضا ، تعد كتابة مصطنعة لا تؤثر في النفس ولا تصلح للبقاء([26])

ومن هذا القبيل الذي نتحدث عنه ، ومن المضحك المبكي أن ندوة للكتّاب والأدباء والفنانين أقيمت في بعض البلاد العربية دعما للانتفاضة الفلسطينية ، قال الكاتب :" جرت مناقشة حول الصياغة الأخيرة لبيان المؤتمر ومن بين المقترحات التي عرضت مقترح قدمه قاضى صيدا ، وهو أحد أعضاء الوفد اللبناني دعا فيه إلى تصدير البيان بالبسملة وآية قرآنية مما يحث الناس على الجهاد والاستشهاد وعلى الرغم من أن الاقتراح كان سهلا وصغيرا ، فإنه أثار ردة فعل واسعة وجدلا ولغطا وأخذ وقتا طويلا ، واستغرق وقتا غير قصير وردات الفعل في الحقيقة كانت غير مقبولة دلت على مكانة الدين في نفوس هؤلاء القوم ، فقال أحدهم :" إن وضع عبارات التراث للتبرك لا محل لها، خصوصا وأن البيان يخاطب المسلمين وغيرهم ، وقال آخر :" إن الاقتراح فيه تطاول على روح الانتفاضة التي لم تنسب إلى دين معين ، وتساءل آخر :" ماذا يقول الغرب عنا إذا وضعنا البسملة في صدارة البيان " ؟ ([27])

هذ ه المدخلات تغني عن أي تعليق التي تقوهوا يها ، قال ليفي اشكوك :" - يهودي - :" لن نسمح بلغة واحدة وشعب واحد ودين واحد في الشرق الأوسط إلى غيرها من الكلمات التي صدرت من مستشرقين ومستغربين حاقدين، قال تعالى - : **(قد بدت البغضاء من أفواههم)** ، [سورة آل عمران ، الآية :118]، ولذلك يضع صموئيل زويمر وصايا ، ومن ضمن وصاياه لاتباعه بأن يجندوا من أبناء المسلمين من يقوم عنهم بهذه المهمة.

ومنذ الربع الثاني من القرن العشرين كان لابد من اتخاذ موقف من التحدي الحضاري الغربي لبلداننا، وهذا الموقف من التحدي أسفر عن نوعين من ردود الأفعال والاستجابة فالأول يسميه المفكر الفلسطيني الدجاني : الانغماسيين الذين، وإن قاوموا الاحتلال الغربي إلا أنهم رأوا أن تقدمهم مرهون باستعارة الفكرة الغربية ، كما هي على علاتها فعمدوا إلى التَّغريب ، وأما ردة الفعل الأخرى فتتمثل في تيار

يسميه المفكر الفلسطيني الانكماشيين ، واعتقدوا أن نجاتهم تتمثل في التقوقع حول أنفسهم والفرار إلى ماضيهم ، وهذا التيار أخفق في تحقيق المعاصرة ، واستيعاب الحضارة الغربية (28)، ويرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، والتحدي الفكري الحديث موجه بالدرجة الأولى إلى المسلمين وأما الفريق الثالث فتمثل في تيار بناة النهضة الحديثة الذين سعوا إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة ، إن الخلل القائم على فهم العلاقة بين هذه التيارات الثلاثة أثّـــرت وبشكل كبير في نهضة أمتنا ، ولذلك يقول عبد الحميد أبوسليمان :" إن العقل العربي المسلم يعاني من أزمة فكر لا من أزمة عقيدة ، وللأسف فإن الخطاب الإسلامي غير واضح ، حيث يشوبه خلط كبير بين العقيدة والفكر، وكأنهما شيء واحد لهما ذات الطبيعة والقداسة ، وإذا وقعت البلاد في أزمة فعلى الدولة أن تستنجد بنخبتها الثقافية ، لكي تسترشد برأيها وتستأنس به .

والانغماسيون على الرغم مما عندهم من أمية فكرية فإنهم منقسمون إلى فريقين : **الأول** / انتهازي يطمح إلى اعتلاء المراتب العالية الرفيعة والجاه والشهرة بأي ثمن وبمختلف الحيل والوسائل ، ولذا نراهم يسلكون الطرق الملتوية ، لتحقيق طموحاتهم فيتزلفون إلى الحكام ويعينونهم على الظلم والاستبداد ، وما نراه أيضا من المحامين الذين أقسموا على أن يقولوا الحق مهما كان فإذا بهم يتعاونون مع المجرم على الضحية ويعينونه على إجرامه فيشهدون ببراءته على الرغم من أنهم على يقين من أنه مجرم آثم ، **وثانيا** / السواد الأعظم من المتعلمين آثر السلامة وانزوى وقبع في بيته يبكي حظه العاثر (لا يهش ولا ينش) ، وتخلوْا عن دورهم الذي كان يجب عليهم القيام به تجاه أمتهم .

فثقافة أمتنا تتعرض لمختلف أنواع الغزو الثقافي للتَّشكيك في صلاحيتها ، لمسايرة التَّطور ومواكبة المدنية ، ثم يأتي بعد ذلك ثلة من الانغماسيين يقولون : إن الغزو الثقافي شبح يتخيله الواهمون ، أو هو تلاقح فكري ، وهو حق للثقافة الغالبة في فرض نفسها ، والجدير بالذكر أن كثيرا من المفكرين العرب المشهورين أمثال زكي نجيب محمود ، وفؤاد زكريا ، ونجيب محفوظ ، ومحمد أركون، وغيرهم في البلاد العربية يرفضون اعتبار ما تتعرض له المجتمعات العربية حاليا بالغزو الفكري ، أو تغريبا ثقافيا ، بل هو في نظرهم مجرد احتكاك ثقافي يحدث على مر الزمان بين الثقافات ، والفارق كبير بين التغريب الثقافي والاحتكاك الثقافي ، فالتغريب أمر

مقصود مدبر صادر من ثقافة قوية ضد ثقافة ضعيفة ، وأما الاحتكاك فيكون ما بين ثقافتين متعادلتين تقريبا من حيث القوة ، مختلفتين من حيث المضمون(28)

ولقد ذهب التغريب ببعضهم حداً بعيداً جداً فاق فيه المستشرقين والمنصرين فيما نطقت به ألسنتهم وسطرته أقلامهم ، حتى ذهب بعضهم إلى القول:" لن تقوم مصر في سبيل الحضارة إلا إذا أقيم المرقص في صحن الأزهر، ويقول : سلامة موسى - وهو يدعو بكل صراحة إلى ارتباط المسلمين بأوروبا في كتابه اليوم والغد - :" الرابطة الشرقية سخافة والرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقة رابطتنا بأوروبا.

المطلب الرابع ــ آثار الغزو الثقافي ونتائجه :

يرى بعض الباحثين أن وسائل الغزو الثقافي و أساليبه كثيرة ، فهي تتناول التربية ، والتعليم ، والفن ، والأدب ، والأخلاق ، والطب ، وعلم النفس الاجتماعي ، والإعلام ، والصحافة ، والتكنولوجيا ، والتنصير ، والاستشراق ، والتغريب ، وإحياء الدعوات الهادمة ، ودعم وتأسيس الحركات والأفكار المعادية كالماسونية ، ومحاربة اللغة العربية ، وتغيير نظم التعليم ، واستخدام وسائل الإعلام المختلفة واستغلالها في نشر الفوضى والإباحية ، وإفساد الأخلاق ، وتغيير سلم الحياة الاجتماعية ، وتبديل القوانين والتشريعات .

وقد استخدمت هذه الوسائل كلّها وغيرها ؛ طالما أنها تصب في الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ، وهو الهيمنة على العالم الإسلامي، ومع تدفق المعلومات بشكل يومي وتكرار مستمر من قبل الأجهزة الغربية في أوروبا وأمريكا ، ومع قلة إمكانياتنا وإنتاجنا الثقافي والإعلامي، وضآلته فهم ينتجون ، ونحن نستهلك ، ومع مرور الوقت نتحول إلى مجموعة من الببغاوات لنعيش على مخلفات ما يلقونه إلينا من فتات طعامهم فيما يسمي بالعولمة الثقافية ، والعولمة هي الاسم الجديد للاستعمار المهيمن على جميع مناحي الحياة في تاريخنا المعاصر ، وهي أشبه بغسيل مخ المتواصل الذي كتب لنا أن نعيش فيه، فنحن نستورد كل شيء من الأوبرا إلى المسرح إلى الباليه إلى الألعاب الرياضية بمختلف أنواعها سواء ما يتمشى معنا أو لا يتمشى وأقول : لا تقلدوا الإنتاج الغربي ، كفانا فيديو كليب ، وأغاني الصراخ ، ورقصات الهستيريا ، وأفلام الرعب ، لقد كان الطغاة في الماضي يحتلون الأرض ويشردون أهلها ، ثم جاء استعمار أكثر مكراً ، يحتل العقول ، ويغزو الأفكار ، ثم تطور إلى استعمار يغزو الاقتصاد ويستولي على الثروات .

آثار الغزو الثقافي في وسائل الإعلام :

- من آثاره تحطيم الأخلاق والقيم بإشاعة روح الاختلاط والتفسخ الاجتماعي
- إشاعة روح السطحية واللامبالاة عند أبناء المسلمين
- تغيير سلّم المنازل الاجتماعية بتقديم ماحقة التأخير وتأخير ما حقه التقديم فالعلماء والمفكرون والدعاة والمصلحون في عالم النسيان بينما نجوم الرياضة والسينما تسلط عليهم الأضواء وتضفى عليهم الألقاب ويحظون بكل أنواع التكريم والتبجيل ويقدمون كنماذج للتضحيات والبطولات الاجتماعية
- نشر روح الاستهلاك بإشاعة الإعلان التجاري عن آخر الابتكارات التجارية عند الغرب في عالم الملابس والأزياء والسيارات والمرئيات ..(29)
- الألقاب كانت تعطى في الجامعات والمراكز العلمية صارت تمنح من قبل وسائل الإعلام ، فأعطت نتائج عكسية ، فينبغي أن لا يستدعى لقنوات الإعلام إلا من هو متخصص في مجاله
- الإعلام هو المنتج الرئيس للإرهاب هذا رأي بعض النخب المثقفة
- الإعلام الغربي معروف بتحيزه للصهيونية ، ومن قرابة قرن من الزمان ارتفعت حدته ضد العرب والمسلمين

إذن لابد أن تُحمى الذاتية الثقافية للأمة المسلمة حيث إن احتكار الدول الغربية لوسائل الإعلام أدى إلى تعريض الذاتية الثقافية عند أكثر الأمم إلى الخطر ، لاسيما الأمة المسلمة، وفرض علينا قيما تعكس قيم الغرب وأساليب حياته ، وهو ما يؤدي إلى السيطرة الثقافية الأمريكية والأوروبية، وقد قيل : " أنه لا يحق لأمة أن تدعي الاستقلال ، إذا كانت وسائلها الإعلامية تحت سيطرة أجنبية" (30).

نتائج الغزو الفكري :

نجحت المؤسسات الغربية وللأسف الشديد من خلال الحملات التي قامت بها في تحقيق بعض أغراضها ، وذلك من خلال:

إنها ضمت إلى صفوفها شريحة من الطبقة المثقفة من العالم الإسلامي، فتكفلت هذه الشريحة بمحاربة الإسلام نيابة عنهم ، ومن أكثر الدول تأثرا بالغرب مصر ، يقول أبو الحسن الندوي :"إنه وجد في مصر كتّاباً وأدباء دعَــوْ دعوة سافرة إلى تقليد

الحضارة الغربية ، ومن أبزر هؤلاء الكتاب طه حسين(31) ، الذي دعا إلى اعتبار مصر جزءاً من الغرب ، وقال :" نريد أن نتصل بأوربا اتصالا يزداد قوّة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنىً وحقيقةً وشكلاً " (32) ، ولطفي السيد ، وسلامة موسى، ولويس عوض الذين جعلوا من مبدأ الشك منهج عمل لهم بدعوى أنه منهج يقوم على التجرد بغية الوصول إلى اليقين ، ومن طبق هذا المنهج بكل حذافيره هو طه حسين الذي تأثر به بعض طلابه ، فتمكنوا من الوصول إلى مناصب علمية وتعليمية حساسة مما مكنهم من نشر آرائهم المثيرة للجدل في مختلف وسائل الإعلام(33) ، ويرى المفكر الجزائري مالك بن نبي أن الفرض الذي وضعه مرجليوث(34) عن الشعر الجاهلي نشر في مقال في يوليو سنة 1925م في إحدى المجلات الاستشراقية ، وفي سنة 1926م ، نشر طه حسين كتابه المشهور في الشعر الجاهلي هذا التسلسل التاريخي يعبر تماما عن تبعية بعض الأفكار لقادة الثقافة العربية للأساتذة الغربيين(35)، ولقد ردد طه حسين فكر هاملتون جب(36) عن القرآن في كتابه ، وهكذا أساء الرجل لنفسه ، ولكتابه ، وللقرآن ، فاتسمت تصرفاته بالخفة وقلة الإحساس بالمسؤولية (37).

وعقلية الاستسلام وقبول المستعمر ، قد أنشأت عند نفر غير قليل من الناس ، وأغلبهم متأثرون بما يروج له الإعلام من أطروحات فكرية التي تصدر على شكل أكاذيب فصدَّقها من فقد الحس النقدي ، ونحن في عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى العقلية النَّاقدة التي لا تسلم إلا بما يثبت أمام النقد .

ولقد نجح بعض المستشرقين ومن قلدهم في صرف أبناء هذه الأمة عن الشعر العربي الأصيل ، وقد كانت أول ريح تهب علينا وافدة من أوروبا التي مثلها أحد المستشرقين بقوله :" من استلذ الشعر العربي فهو مجنون ، ثم تولى هذا القول صاحب كتاب في الشعر الجاهلي الذي أنكر الشعر الجاهلي ، ويستغرب محمد الغزالي من موقف بعض المفكرين المسلمين الذين يرددون أفكار المستشرقين ويعتبرونها قضايا مسلمة ، حتى ذهب القول ببعضهم في وصف طه حسين بأنه مستشرق من أصل عربي ، وكانت أمانته للفكر الغربي ولمذاهب الاستشراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم حتى في القول ببشرية القرآن، و كتابته توحي بذلك، وهو يرى أنه لا سبيل لنهضة المسلمين إلا في الانصهار في الغرب، يقول إبراهيم خليل

فلوربس(38) : " وقد استفادت الكنيسة من كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي، وطلاب اللاهوت يعتبرونه من الكتب الأساسية لتدريس مادة الإسلام(39).

المطلب الخامس ــ أبرز السبل التي يمكن أن تنتهجها الثقافة الإسلامية لإنقاذ العالم، وتتمثل في قضيتين :

القضية الأولى ــ قضية البحث عن الذات الحضارية :

الشعوب النامية إبان معاناتها بصدمة الغرب ، تباينت في طرق مواجهة الخطر الذي يحاول الفتك بها ، ولقد أخطأت الشعوب الإسلامية حين اعتبرت أن سبب الغزو الخارجي لها من قبل الغرب هو امتلاكه للقوة المادية والعلمية والتقنية المتوقف عليها بعشرات المرات ، والأطماع الاستعمارية التي تستهدف محو إراداتها وتاريخها وذاتيتها فتباينت طرق مواجهة هذا العدو بشكل واضح فلم يكن بينها تنسيق ولا تخطيط ، ولا تعاون فيما بينها ، ولعل الخطوة الأولى في مواجهة تيار الغزو الثقافي الجارف الوعي بتراث الأمة على وجه العموم وأنها تاريخ حافل بكل فخر وإكبار ، وفيه ثوابت لا تخضع للنقد ولا للتمحيص ، ولا للنقد والتغيير والتبديل والحذف والإضافة ولا الاستفتاء ، وهما القرآن والسنة ، عن أبي هريرة -ت- أن ، قال : قال رَسُولَ اللَّهِ - ρ- :" **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا ، كِتَابَ اللَّهِ ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**" (40)، وبين متغيرات هي موضع الأجيال المتلاحقة لفهم النصوص حسب متغيرات الظروف والأحوال ، وفيها تتبري صفة الإبداع الإنساني (41)، ولعل من الأخطاء التي فشت في التعامل مع الموروث الثقافي الإسلامي على مدى القرون الماضية هو اعتباره كتلة واحدة ، وهذا خطأ فادح يترتب عليه قصور النظر إلى السياق المجتمعي الحركي لحركة الفكر التربوي ، فهو نتاج قرون مضت ، ومساحة مكانية شاسعة من الصين إلى بلاد الفرنجة ، ومن الرجاء الصالح ، إلى أواسط آسيا ، ووفقا لسنن التطور يستحيل التماثل بين مكونات هذا الكم الهائل من إنتاج الفكر التربوي الثقافي ، ولقد أثر عن الفقيه المالكي القرافي تأكيده على كل من يفتي ألا يفتي من يستفتيه إلا وفق العرف السائد في بلد المستفتي، فالمذاهب الفقهية الكبرى قمة ما وصل إليه الفقه الإسلامي ، وخاصة المتعلق باستنباط الأحكام الشرعية ومعرفتها، فهي تمثل مدراس لتفسير النصوص الشرعية واستنباط الأحكام ، ولقد خلفت لنا ثروة فقهية وثقافية وعلمية هائلة، فتراثنا الفقهي تراث

ثقافي غني بفكره ، وأصالته، وأدلته، وعلمائه، فالفقهاء كانوا عمليين ، أي : أنهم اشتغلوا بمواجهة المشكلات والقضايا المتصلة بحياة المسلمين اليومية ، أما أهل الكلام فكانوا نظريين ، أي : أنهم اشتغلوا بمسائل فكرية ، ربما لا يشعر بها عامة الناس إن العوج الفكري الذي أصاب الثقافة العامة التي يروج لها بين المسلمين اليوم حصيلة ذات بعدين عظيمين كلاهما خطر.

الخطر الأول : جمود المسلمين على الموجود وتقاعسهم عن تحصيل العلوم العقلية التجريبية وانكباب بعضهم على الماضي فقط ينقلون كلاما كثيرا ؛ لكن لم يعد الكلام الكثير مقبولا في هذا العصر ، لتغير الزمان والمكان ، فلم يخرجهم مما هم عليه

الخطر الثاني : العزلة التي عزلنا بها أنفسنا عن العالم ، والذهول الذي أصابنا عندما وجدنا الأمم من حولنا قد وصلت إلى القمر ، وبنت ناطحات السحاب ، ونحن لم نستطع حتى توفير رغيف الخبز، فمازال الدقيق يستورد من الخارج ، ومن كان رغيف خبزه يأتيه من خارج حدوده فسيادته ناقصة ، ووطنه مستباح؛ لأنه لا يستطيع أن يتخذ قراراً نابعاً من ذاته .

القضية الثانية ــ الاعتراف بخصوصيات المجتمعات البشرية :

لابد من فتح قنوات حوارية مع الآخر حتى لا نتقوقع حول أنفسنا وننغلق، وإذا ما وعينا ما عندنا من كنوز معرفية ، وقيم أخلاقية وعقدية ،- وأقبلنا عليها وأحييناها - سيبرز التراث الإسلامي ظاهرة فكرية حضارية من جديد في ثوب قشيب ، يقود العالم من وهدته التي هو فيها ، فللإسلام قوة ذاتية تكمن في محركه الأساسي الذي يقوده وهو القرآن، وهذه القوة تخيف أوربا ، يقول جلاوستون (42) :" مادام القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان "، ويقول المنصر صموئيل زويمر :" إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد الإسلامية ليست إدخال المسلمين في المسيحية وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ،ومن ثمَّ لا صلة له بالأخلاق، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طلائع الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خير قيام(43)

إن مئات المسلمين إن لم أقل آلافاً منهم يجهلون جوهر الدين الإسلامي ، ويجهلون الأساسيات المتفق على وجوبها ، ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه ، وهذا الجهل الذي أطمع فينا الغرب ليبث فينا ضلاله وإفكه وزوره وإثمه وبهتانه بين شعوبنا المحسوبة على الإسلام لابد من الاعتراف فيما بيننا ومصارحة أنفسنا فقد أخفقنا - نحن المسلمين- في الدعوة لديننا ، وأننا لم نبلّغ الإسلام بقيمه الرفيعة ومعانيه السامية إلى العالم ، وكنا أسوأ صورة لعرض الإسلام للعالم مما جعل أرنست رينان (44) يزعم أن فشل العالم الإسلامي اليوم بسبب تمسكه بالدّين (45) ، وأما برنارد لويس في كتابه كيف حدث الخلل 2001 م ، يقول :" إن العرب يعانون من عقدة معالمها الأساسية ترجع إلى رؤية فشلهم في الحاضر وإقامة الدولة الحديثة ..، ولذلك فالمرض مرضهم ولا ذنب للغرب فيه(46) ، وعلى الرغم من أننا نمتلك ثروة مادية هائلة بين أيدينا فإننا لم نستفد منها في مجال تقنية العلوم.

إن الدرس القرآني الذي نتعلمه موجوداً في القرآن ، فثروة المفكر هي الفكر ، ومن خلَّف فكراً فقد أنجب ، وهذه دعوة ملحة ليتعاون المسلمون فيما بينهم على تعليم المسلمين أبجديات هذا الدين وأركانه الأساسية للذين لم تبلغهم دعوة الإسلام الحقيقة .

وسوء الفهم الصحيح للإسلام ، حوّله إلى مذاهب شتى ومداس وتيارات وحركات وجماعات ، ومع هذا فإن خريطة العالم الإسلامي ليست قاتمة كما يتصورها كثير من الناس ، فهنالك أشعة أمل كثيرة تلوح في الأفق القريب والبعيد ، فهذا الذي عرضناه ما هو إلا انحراف فئة قليلة شذت عن النهج القويم ، وأما باقي الأمة فمازالت تستمد الإسلام من هدي القرآن ونفحات الرسول وسيرة الصالحين

الخاتمة :

وفي خاتمة هذا البحث توصَّل الباحث إلى النتائج الآتية :

1- المسلمون لم يفهموا دينهم فهما صحيحا ، وعلَّة تخلفنا في العصر الحاضر هو جهلنا بالعلوم الحديثة بمختلف أنواعها .

2- الدول الغازية لا تنجح في غزوها الثقافي ، ولا تحقق ما تصبو إليه إلا إذا كان المجتمع المستعمَر عنده القابلية للاستعمار، بسبب تفكك بنيته الاجتماعية والثقافية وركوده الفكري وغياب المدرسة العقلية الواعية.

3- الغزو الغربي الثقافي الأجنبي يعلن عن نفسه في لافتات مكتوبة بالخط العريض ، أضف إلى ذلك استخدام كثير من الألفاظ الأجنبية وتداولها وشيوعها بين الناس بدلا من الألفاظ العربية فنجد مثلا : البلكونة ، بدلا من الشرفة ، اللمبة بدلا من المصباح.

4- إن أمر اللغة العربية عظيم ليس بهين فلا تترك لمستثمر أو صانع أو تاجر عملة أو حلاق ، فهذا الخطر بعينه على قيمنا ولغتنا وشخصيتنا.

5- ثقافة أمتنا تتعرض لمختلف أنواع الغزو الثقافي للتَّشكيك في صلاحيتها لمسايرة التَّطور ومواكبة المدنية.

6- نجحت المؤسسات الغربية وللأسف الشديد من خلال الحملات التي قامت بها في تحقيق بعض أغراضها.

7- من الأخطاء التي تفشّت في التعامل مع الموروث الثقافي الإسلامي على مدى القرون الماضية هو اعتباره كتلة واحدة.

8- لابد من فتح قنوات حوارية مع الآخر حتى لا نتقوقع حول أنفسنا وننغلق ، وإذا ما وعينا ما عندنا من كنوز معرفية وقيم أخلاقية وعقدية ، سيبرز التراث الإسلامي ظاهرة فكرية حضارية من جديد في ثوب قشيب ، يقود العالم من وهدته التي هو فيها.

التوصيات :

وفي الختام يُوصي الباحث بالآتي :

1- التأكيد على تأثير الثقافة الإسلامية على التفكير العقلي والتصرف السلوكي في المجتمع الإنساني ككل فالمجتمع البشري ضاق ذرعاً بالانحرافات الخلقية والاجتماعية التي أصيب بها من القلق والفراغ الروحي ، وهي باتت تفتش عن مخرج من الطريق المظلم المسدود الذي وقفت حائرة تائهة فيه لا تدري أين تتجه(47).

2- على الأمناء أن يحافظوا على المؤسسات الثقافية والتعليمية والإعلامية ، من تأثير الثقافة الغربية وهيمنتها في عصر العولمة يتجلى ذلك في إصدار هذه المؤسسات مجلات ومطبوعات على الطريقة الغربية ترد على الشبهات وتفندها بطريقة علمية تقارع فيها الحجة بالحجة .

3- على الأمة الإسلامية أن تحصّن أبناءها بالقرآن الكريم، وذلك من خلال ربط الماضي بالحاضر قال – تعالى - : (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**) ([48]).

4- زرع الثقة في نفوس أبناء أمة الإسلام وتحفيزهم على العمل لقيادة البشرية ، وذلك بأن يتمثل نصب أعينهم قول الله – تعالى -: (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ**)([49]).

5- توطيد الثقة بمستقل هذه الأمة ؛ لأنها تحمل بذور الخيرية إذا ما زرعت بأرض صالحة أنبتت وأثمرت وآتت أكلها ، قال – تعالى - : (**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**) ([50]).

6- إن كل دولة ناهضة أنشأت من ضمن إدارتها إدارات متخصصة ، مثل : إدارة مكافحة المخدرات ، وإدارة مكافحة الحرائق ..، وإنه آن الأوان لأن ننشئ الدولة إدارة لمكافحة الغزو الثقافي والفكري تكون على مستوى رفيع مهمتها رصد تحركات الغزاة، واتخاذ الوسائل لمواجهتها ، وأن يكون لها من الفاعلين ما يحقق لها الاستمرار([51]).

7- العديد من مجتمعاتنا تشهد نوعا من الصراع على الهوية ، وهذا خطير على مستقبلنا ومستقبل الأجيال القادمة ، وعلى أمننا الاجتماعي ، لابد للمثقفين من أن يأخذوا مكانهم الذي يليق بهم تصدّره ، لترشيد المجتمع .

هوامش البحث ومصادره :

[1] - ينظر : **الثقافة الإسلامية** : عزمي طه سيد ، و خليل حميض ، و كايد قرعوش ، إبراهيم محمود حمدان ، 2008 م ، الشركة العربية المتحدة للتسويق. القاهرة - مصر . ص: 8 .

[2]- ينظر : **المصباح المنير**: أحمد بن محمد بن عي الفيومي ، ط: 1، سنة 1417هـ- 1996م ، المكتبة العصرية . صيدا بيروت - لبنان . مادة غزا

[3] - **مباحث في الفكر والثقافة الإسلامية** : محمد عز الدين الغرياني ، ط: 1 ، 2010 م ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس - ليبيا . ص: 131 .

[4] - **حقوق الإنسان بين الفلسفة والأديان** : حسن مصطفى الباش ، ط: 1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية . طرابلس - ليبيا . ص: 209-210 .

[5]- **أخطار الأيديولوجية الصهيونية والأيديولوجية الأخرى على المجتمع العربي الإسلامي** : نبيل عبد الحليم متولي ، ط: 1، 1990 م ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس - ليبيا . ص: 37 - 38 .

[6]- الإسلام في مواجهة ص: 328

[7] - **التنصر والاستغلال السياسي** : محمد عبد الرحمن ، ط: 1، 1430هـ- 2009 م ، دار النفائس . بيروت - لبنان . ص: 16 .

[8]- **الثقافة الإسلامية** : عزمي وآخرون ، ص: 280

[9]- الصهيونية حركة سياسية عنصرية متطرفة ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كله واشتقت الصهيونية اسمها من اسم جبل صهيون في القدس ، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي هرتزل الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث والمعاصر ، والذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم . ينظر : **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة** : مانع بن حماد الجهني ،1435هـ- 2014م ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع . الرياض - المملكة العربية السعودية. 1/ 518 .

10- مثل البابية ، والبهائية ، القاديانية ، وغزو العالم الإسلامي بأفكار مناوئة له مثل الماركسية والليبرالية والشيوعية ، والوجودية ، الخ

11- ينظر : **أخطار الأيديولوجية الصهيونية** : نبيل عبد الحليم متولي ، ص: 37 - 38 .

[12] - **فتاوى كبار الكُتَّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية** : حلمي القاعود ، 2009 م ، دار الفضيلة . القاهرة . ص: 82 .

13- رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم : السيد محمد الشاهد ، ط: 1، 1414هـ- 1994م ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر ، بيروت - لبنان ، ص: 186 .

14- **أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي**- دراسة وصفية تحليلية - : عبد الباسط دردور ، ط: 1، 2002م ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية . طرابلس - ليبيا ، ص: 462

15- ينظر : **المدخل إلى الإعلام والرأي العام** : محمد عبدالملك المتوكل ،الناشر مكتبة النجلو المصرية ، ت د بدون ، ص: 10 .
16- **رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم** : السيد محمد الشاهد ، ص: 186 .
17- **أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي**- دراسة وصفية تحليلية - : عبد الباسط دردور، ص: 460.
18- **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم** : شكيب أرسلان ، مراجعة : حسن تميم ، ط: 2 ، مكتبة دار الحياة . بيروت – لبنان ، ص: 75 .
19 - رواه **أبو داود في سننه** ، كتاب : البيوع ، باب : النهي عن العِينة ، ص: 495، رقم الحديث : 3462، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، ط: 2، 1419 هـ- 1998 م ، اليمامة للطباعة والنشر . دمشق - سوريا . :" المراد العينة ". **العينة :** - بكسر العين المهملة- قال ابن الأثير: " هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به. ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير ، ط : بدون سنة 1421هـ -2000م ، دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت - لبنان . وقال المنذري : وفي إسناده إسحاق بن أسيد عبد الرحمن الخراساني نزيل مصر ، لا يحتج بحديثه ، وفيه أيضا عطاء الخراساني وفيه مقال . إلا أن أبن القيم تتبع طرقه ، وتبين له أن للحديث أصلا ، وأنه محفوظ . ينظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود : أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح ابن القيم : تحقيق : مصطفى شتات ، وأسامة عكاشة ، و ياسر أبو شادي ، المكتبة التوفيقية . القاهرة - مصر . 9/ 241.
20 ينظر : **ندوة المرصد اللغوي العربي للمصطلحات الموحدة** : ط،1، 2010 م ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية . طرابلس - ليبيا . ص: 82 .
21- **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل** : محمد الغزالي ، ط: 6، 2007م ، دار الشروق ، ص: 191 .
22- **الأدب والنصوص**، فرج عبد السلام السوقي ، و علي عبد المنعم عبد الحميد ، 1985م ، أمانة التعليم . ص: 16
23- ينظر: **بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد** : علي محمد عبد الوهاب ، ط: 1، 1421هت 2000م، دار عالم الكتب ، الرياض - المملكة العربية السعودية . ص: 161.
24- **أصول التربية الإسلامية** : سعيد إسماعيل علي ، ط: 1، 1426هـ 2005م ، دار السلام ، مصر
أصول التربية الإسلامية ، ص: 27.
25- **ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق** : يوسف القرضاوي ، ط: 2، 1425هـ- 2005م ، درا الشروق . القاهرة . ص: 62 .
26- **مذكرات سائح في الشرق العربي** : أبو الحسن الندوي ، تحقيق : سيد عبد الماجد الغوري، ط: 2، 1433هـ- 2012م ، دار ابن كثير ، دمشق – سوريا ، ص: 17 .
27- **أدعياء التجديد مبددون لا مجددون :** على العماري ،ط: 1، 1414هـ- 1994م ، مكتبة وهبة . القاهرة . ص: 32 .

28- **مجلة العربي** : العدد: 665 ، ص: 15 . العقل العربي
29- رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم : السيد محمد الشاهد ، ص: 152
30- مباحث عامة في الثقافة والفكر الإسلامي : محمد عزالدين الغرياني ، ص: 140 .
31- **الإعلام الإسلامي – دراسة تأصيلية** - : محمد موسى البر ، طبعة سنة 1431هـ- 2010 م ، دار النشر للجامعات . القاهرة ، ص: 60 .
32- طه حسين تلقى علومه على يد دور كايم ، وقد نشر أخطر آرائه في كتابه الشعر الجاهلي ، ومستقبل الثقافة في مصر .
33- أساليب العلمانية في تغريب المرأة المسلمة : فهد بن فهد البشر ، ص: 30 .
34- ينظر : **دفاع عن السنة** : حمادي محمد بوزيد ، 2006 م ، دار الساقية ، بنغازي - ليبيا . ص: 8 .
35- مرجليوث ، هو : داود ، أو ديفيد صمويل مرجليوث ، ولد بلندن سنة : 1858 م ، مستشرق انجليزي ، ينحدر من أسرة يهودية ، اعتنق المسيحية مثل والده وصار قسا ؛ لكنه ظل في أعناق قلبه اليهودية ، ولهذا كرس نفسه للدراسات اليهودية ، ولقد جنّد نفسه طوال حياته عدوا عنيداً للإسلام ودفعه تعصبه العنيف إلى عرض مزاعم شديد الغرابة لم يقصد بها سوى الهجوم على محمد -□- والحط من رسالته . نال الدكتوراه في الآداب من جامعة أكسفورد ، تقلد العديد من المناصب ، من مؤلفاته : آثار شعرية عربية ، توفي سنة 1940 م. ينظر : معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية : عمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي . بيروت - لبنان . 4/ 138 .
36- **القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة لمباحث القرآن الكريم** : صلاح الدين بسيوني رسلان ، 1984م ، دار النشر للجامعات . مصر . ص: 3 .
37- هاملتون الكسندر روسكن جب مستشرق بريطاني ، ولد بالإسكندرية سنة 1895م ، متخصص في اللغات السامية ، وهو من المحررين في دائرة المعارف الإسلامية درس الأدب العربي ، والتاريخ الإسلامي من كتبه : إلي أين يسير الإسلام ، اتجاهات حديثة في الإسلام ، والمجتمع الإسلامي والغرب ، توفي سنة1391هـ 1971م . ومن أقواله إذا كان القران هو حقا من تأليف- محمد -صلى الله عليه وسلم- فان هناك لا محالة كتبا أخرى تضاهيه . إذن فليأتوا بعشر آيات شبيهة بآياته . فان عجزوا عن ذلك ، وهم لا محالة عاجزون فليقبلوا بأن القران هو معجزة حقيقية في غاية الوضوح والكمال. ينظر : معجم أسماء المستشرقين : يحيى مراد ،، ط: 1، 1425هـ 2004م ، دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان . ص: 699 .
38- **الصراع على الإسلام الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية** : رضوان السيد ، 1426هـ- 2005م ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان . ص: 233 .
39- أستاذ سابق بكلية اللاهوت الإنجيلية ، كان نصرانيا متمسكا بها لدرجة أنه جعل رسالة الماجستير تحت عنوان كيف ندمر الإسلام ، وفي سنة 1959 دخل الإسلام شغاف قلبه فأسلم وحسن إسلامه وصار من المدافعين عن الإسلام . ينظر **: الرفيق المؤنس** : عبد الناصر محمد مغنم ، 142/2 ، ط: 1، سنة 1426هـ 2005م ، دار ابن خزيمة . الرياض - المملكة العربية السعودية .
40- الرفيق المؤنس : عبد الناصر محمد مغنم ،2/ 144 .

41- رواه مالك في الموطأ ، كتاب الجامع ، باب : النّهي عن القول بالقدر ، ص: 648، رقم الحديث : 1619 ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب : العلم ، 171/1، رقم الحديث : 318 ، قال الذهبي في التلخيص : اجتح البخاري بعكرمة ، واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله ، وله أصل في الصحيح ، وله شاهد رواه صالح بن موسى الطلحي ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، وقال ابن عبد البر :" هذا محفوظ مشهور عن النبي - ρ- عن أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد. ينظر : فتح البر في الترتيب الفقهي : ابن عبد البر 1/ 147.

42- أصول التربية الإسلامية : سعيد إسماعيل علي ، ص: 254.

43- زعيم حزب الأحرار ببريطانيا في الفترة 1875م كان من أشد الوزراء عداء للإسلام وخاصة الدولة العثمانية في ذلك الوقت ناسبا إليها ما لم يسمع بمثله التاريخ ، متناسيا ما فعلته حكومة بلادة مع الأيرلنديين والأستراليين السكان الأصليين الذين أعدموا رميا بالرصاص . ينظر : تاريخ الدولة العثمانية العلية : محمد فريد بك المحامي، تحقيق :إحسان حقي ، دار النفائس . ط: 8 ، 1419هـ - 1998م ، بيروت - لبنان . ص: 606 .

44- **أصالة الحقائق العلمية والثقافية في الإسلام** : غازي عناية ، دار زهران . عمان الأردن ، ص: 11 .

45- أرنست رينان : فيلسوف ومفكر ومستشرق فرنسي ، ولد سنة 1823م ، تضلع في اللغات الشرقية ، حتى صار من ثقاتها ، انتخب عضوا في المجمع اللغوي الفرنسي ، اهتم بتاريخ المسيحية على وجه خاص ، لم يتقن العربية ومعرفته بها ضئيلة ، وبذلك لم ينشر له أي نص عربي . من مؤلفاته : ابن رشد والرشديين ، وتاريخ اللغات السامية ، توفي سنة 1892م ، ينظر : معجم أسماء المستشرقين : يحيى مراد ، ط: 1، 1425هـ 2004م ، دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان . ص: 418 .

46- **الصراع الديني :** محمد السماك ، دار النفائس . بيروت - لبنان . ص: 139

47- الصراع على الإسلام : رضوان السيد ، ص: 115 .

48- الثقافة الإسلامية : عزمي وآخرون ، ص: 282.

49- سورة الإسراء ، الآية : 9 .

50 - سورة آل عمران، الآية : 110 .

51- سورة الحج ، الآية: 41 .

52- **الإسلام في مواجهة الغزو الفكري الإستشراقي والتبشيري**، محمد حسن مهدي بخيت ، ط: 1، 2012م ، دار مجدولاي للنشر ، عمان الأردن ، ص: 348.